مآسى التاريخ

كيف قتل السلطان عثمان الثانى

السلطان عثمان الثانى هو السابع عشر من سلاطين آل عثمان. ارتقى العرش في ٢٦ فبراير سنة ١٦١٨ وعمره اذ ذاك أربع عشرة سنة بعد خلع عمه السلطان مصطفي. وكان قوى البنية مفتول العضلات ذا مهارة خارقة فى استعمال الاسلحة يغالى كثيرا في الاعتزاز بقوته حتى كان يظن انه قادراعلى اخضاع شعب باسره وكان ذلك سببا فى قتله شر قتله كما سنفصله بعد :

اعتلى العرش والبلاد تخوض عبابا من الفتن والثورات الداخلية والدولة مشتبكه فى حرب مع ايران ومعرضة لحرب اخرى مع بولونيا. وكان تمرد جنود الانكشارية (جيش المشاة) والسباهي (جيش الفرسان) وخروجهم على النظام واستهانتهم بأوامر رؤسائهم قد بلغ درجة يخشى منها على كيان الدولة. فبعد أن كان هؤلاء الجنود مصدر قوة الدولة وعزها أصبحوا سبب سقوطها و اضمحلالها. وبعد إن كانوا مثالا يحتذى في الطاعة والنظام واقتحام الاخطار اصبحوا ولا هم لهم الا اكتساب الاموال والتداخل فى شؤون الدولة وعزل الرؤساء و تعيينهم مما انتقص من قيمتهم الحربية وجعلهم ينهزمون امام جيوش ايران التى كان يقودها الشاه عباس العظيم

جاء عثمان في وسط هذه الظروف الحرجه فلم يسعه الا عقد للصلح مع الفرس وقبول بعض مطالبهم ولكنه حقد على الجيوش الانكشارية وصمم على التخلص منهم. وزاد الحقد وتلك الرغبة بعد أن رافقهم فى حرب بولونيا و اشترك معهم في ستة معارك نالت فيها تركيا بعض النصر ولكنه لم يكن نصرا حاسما وانتهت هذه الحرب بصلح شبه وقتي. وكان الجنود العثمانيون في هذه المعارك لايحاربون الا طمعا في الغنائم ورغبة فى المطايا والمنح التى كانت تعطي لهم من السلطان اذا أتوا بأسرى أو برؤوس قتلى من العدو ولكن عثمانا كان ضنينا عليهم

بالمال فلم تكن عطاياه تضارع من سبقه من السلاطين وكان يظهر اشمئزازه من سلوك الجند اثناء القتال ويوبخهم تاره ويؤنبهم أخرى فحقدوا عليه و اضمروا له الشر كما أنه صمم تصميماً أكيدا على محوهم واستبدالهم بجنود أخرى من المصريين و العرب .

لم يكن الجنود فقط هم أعداء عثمان بل أنه كان قد اغضب أهل العاصمة حيث كان يعاقب بصرامة كل من وجده سكراناًأو مدخنا فكان يأمر بألقائه في البحر تارة وبالاشغال الشاقة في دور الصناعة تارة اخرى.وكان فى كثير من الاحيان يطوف فى المدينة متنكرا وينفذ هذه العقوبات بنفسه.واغضب كثيرا من رؤساء الدين والوزراء حيث جرد الاولين من كثير مما كان لهم من الامتيازات وكان لايقرب من الآخرين الامن كان موصوفا بالشدة والمهارة في جمع الاموال ولو كان منفورا من الشعب . أغضب أهل بيته بأن قتل أخاه محمدا ظلما اتباعاً لوسوسة باش اغا الحرم بالسراى . وقتل سرية والده لمكانتها فى القصر

اشتركت الطبيعة أيضا فى تهيئه الاستياء العام من السلطان الشاب. ففى أثناء حكمه أمطرت السماء حجارة وجمدت مياه البوسفور وظهر مذنبان ناريان واشتد الغلاء وحصل حريق شديد فى العاصمة حتى ظن الناس ان الله غير راض عن سلطانهم وان هذه شواظ غضبه يصبها عليهم بسببه.

رجع عثمان بعد حرب بولونيا فى سنة ١٦٢١ والحال كما ذكرت استياء بين الجند واستياء فى السراى واستياء في العاصمة ولكنه لم يبال بكل هذا واصدر أمرا باعداد الاسطول واعداد قوة برية تبلغ خمسمائة جندى كى ترافقه فى ذهابه الى الحجاز لقضاء فريضة الحج ولتأديب الامير فخر الدين الدرزى حاكم لبنان الذى كان قد انشق على الدولة واعلن استقلاله فلم تكد تصدر الاوامر ويعلم عزم السلطان على السفر الى الحجاز حتى أخذ دعاة السوء ينسابون هنا وهناك ويروجون اشاعات مؤداها ان عثمانا لايقصد الحجاز لقضاء الحج حقيقة وانما هو مسافر الى مصر والى سورية ليجند منها جيشا بدل الانكشارية والسباهي ويقضى على هذين الصنفين . وبذل الصدر الاعظم والمفتى وغيره من الوزراء مجهودا عظيما كى يتحول الملك عن قصده حتى أن المفتى أصدر له فتوى يقول فيها أن السلطان لايجب عليه الحج وان أوجب منه عليه أن يشرف على شؤون

الدولة ويصلح أمورها وانه يمكنه أن يتقرب الى الله ببناء مسجد أو غيره وحذر منجمو السراى الملك من السفر قائلين انهم حسبوا له طالعا فوجدوه مقرونا بالنحس لان زحل والمريخ قد اقترنا فى برج السرطان .

كل هذه المحاولات لم تفد شيئا فى ارجاع السلطان عن عزمه وكان الخوجه عمر وباش اغا الحرم من المحبذين لهذا السفر فلما نقلت هذه الاخبار الى الجيش سار الانكشارية والسباهي وعقدوا اجتماعا فى ثكنة الانكشارية الجديده ليتفاوضوا فيما يجب عمله لانقاذ انفسهم من الخطر الذى يهددهم . فقاموا أولا بمظاهرة في سوق الجزارين (ات ميدانى) وكانت هذه اولى علائم العصيان فى ذاك الوقت ثم سار المتظاهرون الى بيت الخوجة عمر فلما رآهم أقفل بيته وأشرف عليهم من النافذة فصاحوا به (انزل يامولانا واحمل مطالبنا الى السلطان) فلم يجرؤ الخوجة على النزول لهم بل هرب من قصره متنكرا فاقتحم المتظاهرون الدار واعملوا فيها نهبا وسلبا وكان قد حضرهم شاويش من طرف الصدر الاعظم يدعوهم الى الطاعة فرجموه بالحجارة وكذلك رجموا كل من حثهم على الطاعة من قوادهم . وكانوا قد أرسلوا الى المفتى هذا السؤال (هل يجب شرعا قتل من يحرض السلطان على اختراع البدع وتبذير اموال المسلمين ؟) وكانوا يعنون بذلك من أشار على الخليفة بالسفر إلى الحجاز فكان جواب المفتى (نعم يجب) وبعد أن نهب الثوار دار الخوجة توجهوا الى منزل الصدر الاعظم فقابلهم باطلاق النار فقتلوا وجرحوا بضعة أشخاص . فكان ذلك اول منبه للثوار الى خطئهم حيث حضروا بلا سلاح ولما كان الليل قد أقبل تواعدوا على أن يجتمعوا غدا مسلحين (١٩ مايو سنة ١٦٢٢)

وصلت أخبار الثورة الى عثمان فدعا العلماء وسألهم عن سبب ذلك وعما يجب عمله لتسكينها فاجابوا ان الجند غير راضين عن سفر جلالته وانهم يطلبون ابعاد الخوجه وباش اغا الحرم . فرد عليهم ان اذهبوا وقولوا له انى عدلت عن الحج ولكننى لاأريد ان أعزل الخوجه ولا الاغا . لم يقم العلماء بتنفيذ هذا الامر فى الحال كما كان يجب بل اجلوا الامر الى صباح الغد وفى تلك الليلة كثرت أشاعات السوء فتكهرب الجو وقامت العاصمة على قدم وساق وراجت

سوق المحرضين وتحفز ذوو المطامع والشهوات ودبت عقارب الفوضى ونشط المضللون والافاكون فمن قائل ان عثمانا يعد حرسه للدفاع ومن قائل انه يسلح خدام القصر ورجاله. فما جاء الصباح حتى كان الجيش يغلي غلي المرجل واجتمع الثوار أولا في جامع السلطان محمد الفاتح وبعثوا يدعون العلماء ليتفاهموا معهم فوعدوهم بالحضور اليهم في ميدان السباق (آت ميدان) فهرول الجند الى المحل المذكور صائحين: الله الله. وهناك وجدوا اثنى عشر من كبار العلماء فالتمسوا منهم فتوى بجواز قتل الخوجه عمر واغا الحرم والصدر الأعظم ووزير المالية واثنين من كتاب السراى وقدموا اليهم عريضه يطلبون فيها رؤوس هؤلاء الستة ليرفعوها الى السلطان. فقال لهم العلماء اما الخوجه والاغا فنعلم غضبكم عليهما. وما ذنب الاربعة الآخرين؟ فقالوا أما الصدر فقد اطلقت علينا النار من بيته واما وزير المالية فيدفع لينا مرتباتنا من ارداً النقد. واما الاخيران فمن الذين يؤذوننا. فلم يسع العلماء الا ان يرفعوا هذه المطالب الى السلطان. فغضب غضبا شديداً وقال إني لا أوافق على هذه المطالب الآثمة الجنائية. فلم يراجعه العلماء بل اكتفوا بقولهم (يلزم اختيار أخف الضررين) فقال لا تهتموا بذلك فما هؤلاء الا طغمة من الاسافل عديمة التبصر ولا تلبث أن تتفرق. فحذروه من عاقبة هذه الثورة قائلين ان الجنود متى اجتمعوا لا يرجعون حتى ينالوا مطالبهم بأيديهم وان اجداده كانوا يحرصون كل الحرص في مثل هذه الظروف على اجابة رغباتهم. فعند ذلك اشتد غيظ السلطان وصاح في وجوههم (انكم تتكلمون كما لو كنتم انتم رجال الثورة) فلأقتلنكم انتم والعصاة فلم ينبث العلماء ببنت شفة. وركع حسين باشا الصدر الأعظم السابق على أقدام عثمان متوسلا (مولاى اذا طلب الجند رأسي فاعطها لهم ولا تفكر الا في سلامة نفسك) وكرر العلماء رجاءهم في ارضاء الجند فلم يجبهم بشيء فتهيأوا للانصراف من السراى ولكنهم تلقوا امراً بالانتظار. ولبث الثوار ينتظرون عودة العلماء برهة فلما ابطؤوا تحقق لديهم ان مطالبهم رفضت فزحفت جموعهم على القصر السلطاني مدججين بالسلاح ومن لا سلاح له حمل قضيبا من الخشب أو وتدا فلم يلاقوا اية مقاومة أو صعوبة في اقتحام ابواب السراى ودخول البهو الاول لان الحرس الخاص بعضهم انضم الى الثوار وبعضهم ركن الى الفرار.

ظل الثوار ساعات طويلة في البهو الاول من القصر يصيحون باصوات عاليه مطالبين برأس الخوجة وأغا الحرم والصدر. ولما لم يجدوا من جواب اقتحموا البهو الثاني وأحاطوا بقاعات الديوان مرددين صياحهم وكان العلماء جالسين في هذا البهو امام باب البهو الثالث وهو ما يسمى بباب السعادة فلما رآهم الثوار سألوهم عما تم في شأن مطالبهم فأجابهم نقيب الاشراف بهذه الكلمة الآتية «ان كلامنا لم يسمع فاذهبوا وتكلموا بانفسكم» وإنما قلت كلمة آتية لانها ادعى الى ان تكون تحريضاً من أن تكون تسكيناً فاقتحم المهاجمون باب السعادة ودخلوا الى البهو الثالث وفي ذلك الوقت وقع أمر لا يمكن تعليل تأثيره في الظاهر ولكنه قد يكون في مثل هذه الحاله كافيا لاسقاط أعظم حكومة ودك أفخم عرش . أمر سرى في هذه الجماهير الصاخبه المتوترة الاعصاب فحولها عما قصدت اليه الى قصد آخر لم يكن مقررا في بادىء الامر. ذلك الامر هو كلمة القيت بصوت عال من أعماق البهو الداخلي فكانت كسهم صوب الى صدر عثمان فأصاب منه مقتلا تلك الكلمة هي (نريد السلطان مصطفى) فما سمعها الثائرون حتى تلقفوها ورددوها بحماس عظيم وهجموا على البهو الداخلي يبحثون عن هذا السلطان الذي كانوا قد خلعوه من قبل لضعف عقله وحماقته وكان معتقلا في هذا القصر في غرفة قذرة ليس فيها من الاثاث الا فراش قديم يخدمه اثنان من المماليك . وطفق الجند ينتهكون حرمة غرفات لم تطأها قدم أحدهم من قبل باحثين عن السلطان مصطفي صائحين (نريد السلطان مصطفي). ورأى عثمان حرج الموقف فلم يسعه الا اذ أرسل أمرا الى الصدر الاعظم والى أغا الحرم بالقدوم اليه فلما قدما اسلمهما الى الجند لعل ذلك يخفف من غيظهم. ولم يكد هذان البائسان يظهران أمام الجند حتى مزقوهما اربا اربا ولم يكفهم ذلك لتسكين غيظهم بل آخذوا يبحثون عن السلطان مصطفي . فأشار لهم أحد العلماء بأن السلطان مصطفي موجود في دائرة الحرم. وكانت هذه الدائرة ليس لها باب من داخل البهو فصعدوا على سقفها وهدموا السقف وأنزل احدهم الى أسفل حيث كانوا قد سمعوا بوجود السلطان مصطفي هناك. فوجدوه على مرتبته يتلوى من العطش فسقوه وأخبروه ان الجند ينتظرونه وانهم يرغبون في اعادته الى السلطنة فكان يرتعد من الخوف ولا يجيبهم بشيء . فحملوه الى البهو

الثاني ونادوا به سلطانا ونادوا العلماء ليقسموا له يمين الطاعة فامتنع العلماء أولا ولكنهم رضخوا أخيرا تحت تهديد السيف حتى أن احدهم مات من الخوف. ثم انطلق الجند بالسلطان مصطفى الى أمه وكانت امرأة ماكرة تطمع فى الملك وتريد أن تحكم باسم ابنها. وبعد ان ذهب الجند بمصطفى انتشرت إشاعة بأن عثمانا سيهاجم مصطفى ويقتله فنقله الانكشارية الى قشلاقهم وانتشرت الفوضى فى لمدنية وزاد النهب والسلب فدعا عثمان الصدر الأعظم السابق وولاه الصدارة واستشاره فيما يجب عمله. فقال له لم يبق سبيل الا استجلاب رضى الأنكشاريه وطلب الحماية من رئيسهم. فقال عثمان لو كان الأمر بيد الأنكشاريه وحدهم لهان الخطب ولكن العلماء مشتركون معهم فى العصيان والأولى بى أن اتوجه الى الجانب الأسيوى واظل هنك الى أن تهدأ الفتنة ويعرف الجند قيمة السلطان الذى ولوه على انفسهم. فأستصوب الصدر هذا الرأى ولكن لما أراد السلطان ركوب القوارب واجتياز البسفور وجد ان جميع البحارة قد هربوا ولم يبق من يسوق قاربا. فاضطر عثمان الى اتباع رأى الصدر وذهب الى بيت أغا الانكشاربة (قائدهم) وذهب حسين باشا بمقدار من الذهب الى مكان القشلاق عله يتمكن من شراء بعض زعماء الثورة. ووصل السلطان الى بيت أغا الأنكشاريه فوجده قد ذهب لمبايعة السلطان مصطفى فأنتظره الى ان جاء وأخبره انه على استعداد لان يدفع لكل انكشارى خمسين دينارا من الذهب ولكل سباهى عشرة قروش زيادة في المرتب فرضى الاغا بعرض هذا الامر على الجند ولكن الاخبار كانت قد وصلت الى الجند فقرروا الا يسمحوا للأغا بالكلام والا يقبلوا مثل هذا التكليف. فلما وصل الأغا الى القشلاق وصعد المنبر ليتكلم فيما جاء لأجله صاح الجند (اسكت اسكت) ودفعه أحدهم الى الارض بقوه وتلقفه الآخرون فمزقوه اربا اربا وذهبت طائفة منهم الى منزله ليأتوا بعثمان، وفى اثناء ذهابهم فتكوا بحسين باشا والقوا جثته فى الطريق ثم أنهم أخرجوا عثمانا من مخبئه عارى الرأس ليس عليه من الملابس الا قميص وسراويل فأركبوه حصانا هزيلا وساروا به بين صيحات الاستهزاء وكلمات التهكم والسخريه فكان هذا للسلطان العظيم والشاب الشجاع يسير في وسط هذه الوحوش المفترسة وتلك الحيوانات الضارية ثابت الجأش هادىء البال ولكنه لما مر على جثة حسين

باشا وهى ملقاة على الارض، لم يتمالك نفسه عن البكاء وقال (هذا والله برىء) فلو انني اتبعت نصا نحه لما أصابتنى هذه المصيبة ولكننى اصغيت الى وساوس الخوجة واغا الحرم فأضلانى سواء السبيل. فلم يثر هذا الاعتراف اى عطف لدى هؤلاء الوحوش بل ازدادوا سفاهة وقحة فمن قائل (ما أحلاك ايها الصبي انك جميل الطلعة يا عثمان) ومن قائل (الا يروق لك الآن مباغتة الحانات وتكبيل الانكشارية والسباهي بالسلاسل والاغلال ورميهم في قاع البحار)؟ وقال آخر هل فتح اجدادك الممالك بقوة السكبان؟ (نوع حديث من العساكر غير الانكشارية هم المصريون والعرب) هل هم الذين شادوا هذه القلاع ؟ ومثل ذلك من كلمات التهكم والسخرية وتجاراً ابن صائغ على أن يقرص السلطان في خده مشفعا قرصه بكلمات بذيئة. فقال عثمان باكيا يا ملعون الست سلطانك؟ وقد ذهب بعض المؤرخين الى الادعاء بأنهم حاولوا الاعتداء الفاضح على شخصه. على هذه الصورة سيق عثمان الى القشلاق ثم الى السراى وكان الجند لا يريدون قتله ولكنهم يريدون فقط ان يعتقل ولكن داوود باشا الذى تمين صدراً أعظم من قبل أم السلطان مصطفى ، لانه كان زوج ابنتها، اتفق معها على قتله وذهب اليه ومعه جلاد ورئيس حرس القصر. وكان عثمان يخاطب من حوله بكلمات مؤثرة قائلا :

(أيها الجنود . ماذا تريدون أن تفعلوا بسلطانكم؟ انكم تسعون في خراب المملكة وفى هلاك أنفسكم) وقال أيضا وقد اغرورقت عيناه بالدموع (سامحونى اذا كنت قد أغضبت أحدكم بدون علم فبالامس كنت سلطانا والآن عريانا. فاعتبروا بما صرت اليه فستجزون أنتم أيضا بما كسبت أيديكم. فانتهز الجلاد فرصة اشتغاله بالكلام ورمى الحبل فى عنقه ليخنقه. ولكن عثمانا كان منتبها فمسك الحبل بقوة وتخلص ولو مؤقتا من الموت فعند ذلك صاح زعماء الجند : قفوا فما تعملونه الآن سيجر علينا البلاء غداً . وصاح عثمان مخاطبا داوود باشا « أيها الوحش ماذا عملت معك؟ ألم أنقذك مرتين من الموت وأعدتك الى مناصبك؟ فمن أين تولد عندك هذا العداء نحوى ؟ » وهنا تداخلت أم السلطان مصطفى وخاطبت زعماء الجند قائلة « احذروه فانه ثعبان فلو أفلت منكم لقتلنا جميعا » وأشار داوود باشا الى الجلاد بخنق عثمان فمارض الزعماء مرة ثانية والتفت عثمان الى رئيس حراسه قائلا: «من الذى قلدك هذه الوظيفة» فأجاب « السلطان مصطفى » فقال عثمان ما السلطان

مصطفى الا مجنون لا يعرف اسمه. افتح النافذة حتى أتحدث الى رعيتى فتأثر رئيس الحرس وفتح النافذة المطلة على فناء المسجد المجتمع فيه الجيش فخطبهم عثمان قائلا : أيها الاغوات السباهيه وأنتم يا قدماء الانكشارية يا أبائى الاعزاء. لقد ألقيت سمعى الى نصائح السوء تحت تأثير طيش الشباب فلم تمعنون فى اذلالى الى هذا الحد ؟ الا تريدوننى اذن ؟ فصاحوا صيحة واحدة (لانريد حكمك ولا نريد دمك) وحاول الجلاد خنقه الثالث مرة اخرى فلم يتمكن من ذلك فلم يجد داود باشا بدا من نقله من السراى الى الحصن ذى السبعة ابراج (يكى قلعه) فتوجه به الى هناك ومعه الجلاد والسكرتير الخاص ومدير البوليس فتجمع الاربعة عليه ليقتلوه فلم يتمكنوا وكاد يظهر عليهم لولا أن تمكن الجلاد من القاء الحبل فى عنقه وقبض مدير البوليس على خصيتيه وضغطهما بقوة شديدة فسقط عثمان على الارض وأسلم الروح. وهكذا تمكن هؤلاء الآثمين من ارتكاب فعلتهم الشنيعة التى هى أول حادثة من نوعها فى التاريخ العثمانى والتى وصمت هذا التاريخ بوصمة من العار لا تمحى. ولكن العدل الالهى أنفذ احكامه فى قاتليه بعد ذلك بمدة قصيرة وماتوا بعد ذلك أشنع ميتة وهكذا عاقبة الطغيان ؟

محمد خليل